مفارقة التّسامح في الخطاب العربيّ المعاصر

د. خالد قطب

إنّ التّسامح كقيمة أخلاقية وحضارية وثقافية رفيعة تعدّ المدخل الرئيسيّ لتقدم المجتمعات، بل يمكن القول إن التسامح هو القيمة التي تـجعل الحياة ممكنة. والثقافة التي تريد البقاء في هذا العصر المفعم بالأزمات السياسية والانفجارات الاجتماعية والفجوات الاقتصادية والدمار البيئي وارتفاع وتيرة العنف وتأثير التقدم العلمي المتسارع وتطبيقاته التقنية على القيم والأفكار والمعتقدات، لابدّ لها أن تصيغ مفهوما للتسامح لا يقوم على التنازل عن الحقوق والهويات والثوابت من ناحية، ولا يتحول إلى نوع من الخنوع والخضوع للآخر من ناحية أخرى، بل يقوم على القوة التي تقف في مواجهة كل سلطة (أيديولوجية، سياسية دوجماطيقية) تحول دون تحقيق حرية الإنسان التي هي جوهر التسامح، ومن ثم لا يكون التسامح مجرد قيمة أخلاقية سلبية، بل سلوكا عمليا واقعيا يدخل في علاقات جدلية حوارية مع أفكار ومذاهب تمثل سلطة على الإنسان، فلا تتحقق حريته المنشودة.

لقد وجدنا الكثير من الثقافات والحضارات والديانات، على مدى التاريخ الإنساني، توظف مفهوم التسامح بحيث تغدو هذه الثقافة أو تلك الحضارة أو ذاك الدين ثقافة وحضارة ودين التسامح، وهذا ما يجعل مصطلح التسامح يثير إشكاليات عديدة منها : هل يمكن أن نتسامح مع وجهة نظر أو فكرة متعصبة؟ أو هل يمكن أن نتسامح عندما نواجه أشخاصا أو اتجاهات أو اعتقادات نقف على النقيض منهم ومن اتجاهاتهم واعتقاداتهم؟ وهل هناك قواعد محددة للتسامح؟ ومن هو الآخر الذي أتسامح معه؟ فقد يكون الآخر من الأنا وقد يكون من غير الأنا؟.

إن إثارة إشكالية التسامح في خطابنا العربي المعاصر، على الرغم من قدمها النسبي، إلا أنها إشكالية تكشف أزمة الإنسان العربي ذاته في علاقاته الثقافية والحضارية والأيديولوجية مع الآخر، سواء كان هذا الآخر من الأنا أو من غير الأنا، لذا حاولت هذه الورقة أن تقدم قراءة لخطاب التسامح في فكرنا العربي المعاصر في محاولة لكشف المفارقات التي يحملها مفهوم التسامح في هذا الخطاب.

خطاب التسامح في الفكر العربي المعاصر :

عدّل المثقفون في فكرنا العربي المعاصر من خطابهم بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001 سواء كانوا من المثقفين العلمانيين أم الإسلاميين، بحيث وجدنا شبه إجماع منهم على ضرورة صياغة مشروع إصلاحي تجديدي ينطلق من إيجاد صيغة مصالحة بين الإسلام وقيم الحداثة الغربية وذلك بالتأكيد على قيم

الحوار والتعايش السلمي والتسامح، فأصبح الحوار مطلبا حضاريا ودينيا مقدسا، وغدا التسامح هو جوهر الإسلام، وأصبحت الحضارة العربية حضارة للتعايش بين الثقافات والحضارات والأديان المختلفة. وقد جاء التأكيد على قيم الحوار والتعايش والتسامح وضرورة الإصلاح والتجديد في الخطاب العربي العلماني والديني على السواء من أجل دفع تهمة العنف والإرهاب ودموية الدين الإسلامي، ورغم ما يبدو من تناقض في المنطلقات المعرفية والمنهجية والإيديولوجية التي ينطلق منها الخطابان، إلا أن الأحداث العالمية وخاصة أحداث الحادي عشر من سبتمبر وحدّت المنطلقات وأزالت المتناقضات بين الخطابين العلماني والديني وأصبحا ينطلقان من ثابت واحد هو «تقديم كشف حساب للغرب يظهر فيه حسن النية وبراءة الذمة» ولعل خطاب التسامح الذي برز بقوة في العقدين الماضيين في فكرنا العربي المعاصر يكشف بوضوح عن هذا الثابت الذي غدا مقدسا.

قراءة في خطاب التسامح العلماني :

ارتكز خطاب التسامح العلماني على عدة مرتكزات منها الاعتقاد في نسبية المعرفة الإنسانية، حيث يدّعي هذا الخطاب أن أحدا لا يمكنه أن يملك الحقيقة، لأن العقل الإنساني له الحق في أن يختار لنفسه المعرفة التي يرتضيها لنفسه، فلا معرفة خارج صنع الإنسان واختياره، وبالتالي يرفض العقل المتسامح المسلّمات المطلقة لأنه عقل دائم التحول يرفض منطق القناعة وإذعان

التصديق وتبلّد التسليم وجمود التقليد[1]. ونتيجة لهذا يرفض خطاب التسامح العلماني كل شكل من أشكال الأصولية الدينية وخاصة الأصولية الإسلامية لأنها، حسب هذا الخطاب، تحرض على العنف والتعصب والحقد والتخويف من الآخر، كما تشجع هذه الأصولية الدينية (الإسلامية) على الصراعات الدموية العنيفة وتشرّعها، وهي في هذا تستغلّ الدين لأغراض سياسية، لذا نجد بعض دعاة خطاب التسامح العلماني يذهبون إلى أن الدين ذاته هو المحرض على التعصب، لأن الدين في جوهره لا يقدر على التسامح لأن غرض المتديّنين بدين ما مناقض لأغراض التسامح. فهؤلاء المتدينون متعصّبون لدينهم، ويتجلى هذا التعصب في اعتقادهم أن دينهم لديه الحقيقة الكاملة، وأن تعاليمه هي الحق المبين، وهذا عكس قيمة التسامح التي تجعل الإنسان يعتقد فيما يشاء ولا يعتقد فيما يشاء[2].

إن أحد المنطلقات التي ينطلق منها خطاب التسامح العلماني في فكرنا العربي المعاصر هو أن الحضارة العربية الإسلامية لم تعرف مفهوم التسامح، بل أصبح هذا المفهوم من أنواع اللامفكر فيه في الفكر الإسلامي، وهذا يرجع إلى بنية العقل العربي الإسلامي التي تتميز بأنها عقلية أصولية (أرثوذكسية). أما على مستوى الممارسة فلم تمارس الثقافة العربية الإسلامية التسامح لعدم وجود

---

1) د. جابر عصفور: «هوامش على دفتر التنوير» دار سعاد الصباح، الكويت 1994. ص 364.

2) المرجع السابق. ص 420.

شروط تحقق التسامح المنشود كغياب المجتمع المدني وغياب دولة القانون التي تضمن عدم التعرض للعقاب عند التعبير عن موقف فكري ومذهب مخالف[3]. أما الصورة الحقيقية لمفهوم التسامح فلم تظهر إلا في انبثاق الحداثة في أوروبا عندما أعلن فلاسفة الحداثة الغربية ضرورة الفصل بين الكنيسة والإنسان وعدم تدخل الأولى في العلاقة التي تربط بين الله والإنسان، وأن يكون العقل وحده هو الحكم، ويستدعي خطاب التسامح العلماني الفيلسوف الإنجليزي جون لوك J. Lock لكي يبين لنا جوهر التسامح الديني الذي يعني لديه حرية الدين والعقيدة، فكل فرد له الحقّ في أن يعتقد وأن يؤمن بحرية كاملة، وأن الحرية الدينية والفردية حقّ مكفول للجميع، وليس لأي سلطة دينية الحق في اضطهاد أي فرد بسبب عقيدته أو دينه[4].

إن تأكيد خطاب التسامح العلماني على غياب مفهوم التسامح في الثقافة العربية الإسلامية جعله يدعو إلى قيم كونية مشتركة بين الحضارات والثقافات والشعوب، حيث تكون هذه القيم بمثابة القاسم المشترك بين الناس جميعا في هذا الكون، فمن شأن هذه القيم أن تؤدي إلى التسامح والتعايش بين الحضارات وتجعل الجميع يلتزمون بثقافة اللاعنف والانضواء تحت ثقافة

3) محمد أركون : «الفكر الأصولي واستحالة التأصيل: نحو تاريخ آخر للفكر الإسلامي» ترجمة. هاشم صالح. بيروت. دار الساقي. ط 1. 1999.

4) د. عزمي إسلام : «جون لوك : نوابغ الفكر الغربي». دار المعارف. مصر ـ القاهرة 1964. ص 212 ـ 215.

تتساوى فيها الحقوق وتتكافأ فيها فرص المشاركة بين الرجال والنساء. ولكي تؤتي هذه القيم الكونية ثمرتها المرجوة كان لا بد من وجود نظام سياسي واقتصادي كوني يضمن نشر هذه القيم ويحافظ على بقائها ويحارب الصراعات الإثنية والقومية والاجتماعية والاقتصادية والدينية، ومن ثم تصبح القيم الكونية قيما موحدة وسننا تصلح لجميع البشر أيا كان انتماؤهم الاجتماعي أو جنسهم أو لون بشرتهم أو لغتهم أو دينهم[5].

لقد كان الانفتاح على الآخر / الغرب ومطالبته بمدّ يد العون والمساعدة أحد المطالب الرئيسية لخطاب التسامح العلماني، حيث يطالب هذا الخطاب بالاعتراف بالآخر / الغرب وقبوله لأن هذا، حتما، سيؤدي إلى الحرية والعقلانية والتنوير والديمقراطية، وهي المبادئ الأساسية للتسامح، ولا يؤتي هذا الانفتاح ثمرته إلا بمطالبة الثقافة العربية الإسلامية يد العون والمساعدة من الثقافة الغربيّة الأوروبية الحديثة. فالغرب قد سبق العالم العربي الإسلامي للدخول في الحداثة واكتساب الحريات والديمقراطية، ولما كانت المجتمعات العربية الإسلامية تعاني اليوم من فوضى اجتماعية وسياسية ومعنوية، فقد وجب على هذه المجتمعات القيام بثورات مفاهيمية وعقلية كالتي حدثت في الغرب، ولا يعني الحديث عن التسامح وحقوق الإنسان أن تلجأ هذه المجتمعات إلى التّرقيع الإيديولوجي بين

---

5) هانز كينج : «نحو أخلاق عالمية : إعلان عالمي صادر عام 1993. مجلة التاريخ» وزارة الأوقاف والشؤون الدينية. سلطنة عمان. مسقط. 2004. ص 58 ـ 76.

الإسلام والغرب، بل بالمطالبة بأن يمد الغرب يد العون للمجتمعات العربية، وبالتالي تصبح الدعوة الحقيقية للتسامح ممكنة[6].

هذه بعض الركائز التي ارتكز عليها خطاب التسامح العلماني في فكرنا العربي المعاصر، إلا أن هذا الخطاب يثير عدة تساؤلات تجعلنا نقف منه موقفا نقديا، هذا الموقف يمكن إجماله في النقاط التالية :

- رغم ما ينادي به الخطاب العلماني من تحرره من أي سلطة كانت سوى سلطة العقل، نجد أن الساحة الثقافية العربية الراهنة تكذّب هذا الادعاء حيث استغل الخطاب العلماني الفجوة الحادثة بين السلطة العربية السيالسية الحاكمة وبين الإسلاميين ليرتمي في أحضان هذه السلطة بعد تيقنه الكامل برفض الجماهير له، فأخذ يدافع عن هذه السلطة ويدفع عنها التّهم مروّجا لخطاب تحكيم العقل التنويري والاستماع إلى صوت العقل الذي يؤكد الديمقراطية والحرية والتسامح والتعايش والحوار، وفي حقيقة الأمر فإن الخطاب العلماني يخشى من تطبيق هذه المبادئ، وما حدث في الانتخابات الجزائرية خير دليل على ذلك.

- إن الخطاب العلماني يسعى إلى تجديد مفهوم القيم الكونية لإضفاء الشرعية على الأحادية القطبية التي تجعل الغرب مسؤولا مسؤولية الواجب الكانطي عن حفظ السلام الدولي، فالغرب هو

---

6) محمد أركون : «الأسلام، أوروبا، الغرب : رهانات المعنى وإرادات الهيمنة». ترجمة هاشم صالح. دار الساقي. بيروت 1995.

الوحيد الذي يتمتع بمميزات عسكرية ودبلوماسية وسياسية واقتصادية كفيلة بأداء هذه المهمة على خير وجه. ولكي تقوم هذه الأحادية القطبية بأداء مهمتها لابد أن يتوفر الفضاء العالمي، أو قل الكونيّ المستقرّ القائم على التسامح، هذا التسامح يتم تنظيره في شكل قيم كونية يجب على الجميع أن ينضوي تحتها، وخاصة العالم العربي الإسلامي، حيث يطالب الخطاب العلماني بضرورة الوقوف صفا واحدا مع الغرب لمجابهة الإسلاميين، وبالتالي يبرر هذا الخطاب الحرب (العادلة) ضد من يخالف فرض ونشر هذه القيم، أو حق الآخر في التدخل الإنساني لمقاومة «الإرهاب» العابر للقارات، ومن ثم تصبح استراتيجية التسامح في هذا الخطاب استراتيجية التخويف والضرب الاستباقي.

- إن حقيقة الحوار الذي يدافع عنه الخطاب العلماني يقوم على الرغبة في الهيمنة والتسلط وكبت صوت الآخر في الداخل المخالف للمنظومة المعرفية والفكرية والأيديولوجية لهذا الخطاب، ويأتي هذا الكبت لصوت الآخر في الداخل من أجل فسح الطريق للآخر / الغرب / الخارج. ونقول إن كبت الأنا المشترك في اللغة والثقافة والحضارة إنما هو تمهيد لسيادة خطاب الآخر المختلف لغة وثقافة وحضارة. وتتجلى أشكال السلطة والهيمنة في الخطاب العلماني في فرض أحكام مسبقة وقوالب فكرية جاهزة تبدو في ظاهرها فروضا وأحكاما وأفكارا متسامحة، في حين أنها تخفى سلطة وهيمنة، كما كانت دعوة الحوار التي يشدد عليها هذا الخطاب العلماني ردّ فعل على ما قام به بعض الباحثين الغربيين

مدفوعين من قبل السلطة السياسية الغربية (الأمريكية) من الترويج لمقولة «صدام الحضارات»، ليأتي البديل الفوري وهو حوار الحضارات ولكن وفقا لمنظومة الفكر الغربي الأمريكي التي تقوم على نفي الآخر غير الغربي والسيطرة على مقدراته وثرواته.

ـ عندما يتحدث الخطاب العلماني عن التعصب لا يقصد سوى التعصب الذي يشيعه الإسلام الأصولي الذي يصوره الخطاب العلماني على أنه مجموعات التطرف الديني بفصائلها المتعددة في واقعنا العربي الإسلامي، هذه المجموعات، في رأي هذا الخطاب، تحاول فرض فكرها الأصولي (المتطرف) القائم على التقليد والاتباع والخرافة، وفي المقابل يكون التسامح هو الإيمان بحرية التفكير والإبداع وتحكيم العقل وهذا يمثل تناقضا صريحا في الخطاب العلماني الذي يدعو إلى احترام حقوق الآخرين وحرياتهم في التعبير عن آرائهم، وفي نفس الوقت لا يسمح للجماعات الدينية (المتطرفة) من أن تبدى آراءها أو تنشر فكرها، فضلا عن تهميش هذا الخطاب الديني الإسلامي لوجود عناصر المقاومة ورفض أشكال السيطرة والهيمنة باسم التسامح. والخطاب العلماني يسعى لنشر ثقافة التسامح بدلا من ثقافة المقاومة والتبعية والذوبان في الآخر، كما أن هذا الخطاب يقف ضد مشاريع الخصوصيات الثقافية خوفا من أن تتحول هذه المشاريع إلى خصوصيات سياسية تحمل خطرا يهدد سياسة القطب الواحد[7].

7) د. حسن حنفي : «من أنطاكية إلى بغداد». مكتبة الشروق الدولية ـ القاهرة. 2004. ص 351.

ـ يسعى الخطاب العلماني إلى تشويه الثقافة العربية الإسلامية أو ثقافة الأنا، حيث يساوي هذا الخطاب بين الإسلام والعنف والإرهاب والتخلّف والقهر وانتهاك حقوق الإنسان ومعاداة المرأة والأقليات، ويعلنها صراحة أن الثقافة العربية الإسلامية ثقافة مضادة للإنسان والإنسانية ومن ثم تحتاج هذه الثقافة دائما إلى عون خارجي أو ثقافة خارجية هي ثقافة الآخر / الغرب الذي يفرض التسامح بالآلة العسكرية والسيطرة الاقتصادية. لقد تعمّد الخطاب العلماني تشويه الإسلام كعقيدة وفكر من خلال التأكيد على دموية هذا الدين وما تثيره كلمة دموية من فزع ورعب في نفوس الآخر، لهذا طالب هذا الخطاب بضرورة التوصل إلى علاقات جديدة تربط الغرب بالإسلام قائمة على النظر إلى المستقبل على أساس تحرير البشر من الأفكار والثوابت والمعتقدات الجامدة.

ـ استدعى الخطاب العلماني جون لوك من التراث الغربي ليكون نموذجا للتسامح الديني نحتذى به ونسير على خطاه، إلا أن جون لوك ذاته لم يكن متسامحا حيث يستثني في خطابه بعض الفئات من التسامح ـ التي تتعارض معه فكرا وأيديولوجيا ـ بمعنى أن هذه الفئات لا ينبغي التسامح معها، وهنا تظهر المفارقة في خطاب جون لوك في التسامح. أم الفئات المستثناة فهم الملحدون أو غير المؤمنين بالعقيدة الرسمية التي تقرها الكنيسة، وهذا يتناقض مع المبدأ الأول من مبادئ جون لوك الذي يقول فيه بحق الفرد في أن يعتقد ويؤمن بما يشاء، وليس هناك سلطة دينية تجبره على الإيمان، فالملحد فرد اختار عدم الإيمان وفي هذا حرية اختياره، أم الفئة الثانية المستثناة من التسامح فهم الذين يؤمنون

بدين غير الدين الرسمي في الدولة. بمعنى أن تكون عقيدتهم تابعة لدين أجنبي (غير المسيحية) أو لسلطة دينية أجنبية (غير المسيحية الإنجيلية الإنجليزية) وهذا أيضا يتنافى مع تسامح جون لوك الذي يرى أن حرية العقيدة مكفولة للجميع.

- لقد أشاع الخطاب العلماني أن الثقافة الغربية تخلت عن الاستعلاء العنصري / العرقي والتمييز الطائفي والديني والطبقي نتيجة صياغة هذه الثقافة لمبدأ التسامح، إلا أن الواقع التاريخي الغربي الفعلي السياسي والاجتماعي يبتعد عن ممارسةمبدأ التسامح، ويسود العدوان والتسلط والظلم، حتى إذا صادفنا في هذه الثقافة شعارات ترفع مبدأ التسامح عاليا، فهي لا تعدو إلا أن تكون شعارات تمنح الآخر بعض الحقوق ولكنها تملك الحق في أن تسحبها منه في أي وقت.

إن السؤال الذي يطرح نفسه الآن، هل إنّ تفعيل التسامح بهذا المعنى الذي يروج له الخطاب العلماني سيغير من خريطة العالم كله (بما في ذلك العالم العربي الإسلامي) بمعنى وجود عالم تتآلف فيه الثقافات والمعتقدات وتتجاوب على أساس العقل وحده واحترام حق الاختلاف، أليس هذا التآلف والتجاوب هو هدف الآخر / الغرب على المستوى السياسي والاجتماعي والاقتصادي لتحقيق مصالحه فقط؟!

خطاب التسامح الديني :

شهد الخطاب الدينيّ الذي تشكّل خلال العقد ونصف

العقد المنصرفين، أي عقد التسعينات وخاصة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، تغيرات واضحة في لغة الخطاب التي يروّج من خلالها لأفكاره، فقد ابتعد هذا الخطاب عن الحديث عن الهوية والذاتية والخصوصية العربية الإسلامية وضرورة المحافظة عليها، ودعا إلى تفعيل ثقافة الحوار والتعايش السلمي بين الإسلام والغرب، ولكي يؤتي هذا التفعيل ثمرته المرجوة كان على الخطاب الديني أن يمهّد البيئة العربية الإسلامية لتقبّل المفاهيم الغربية الحديثة وأن ينزع عنها صفتها الغربية أو الأجنبية عن طريق إيجاد إطار مرجعي لها في النص الديني والتراثي.

لقد انساق الخطاب الديني وراء الدعوة الغربية الصريحة إلى ضرورة إصلاح الخطاب الديني الإسلامي في سياق حرب الغرب ضد (الإرهاب) فوجدنا هذا الخطاب يدعو إلى إحداث إصلاح تربوي تعليمي سياسي اقتصادي يقوم على الحرية والديمقراطية والتسامح وتقبّل الآخر وإنهاء الكراهية والتطرف بين الإسلام والغرب. إن ظهور مثل هذا الخطاب الديني في واقعنا العربي الإسلامي المعاصر بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر يدلّ على تأثر هذا الخطاب بالأحداث التي وقعت، فبعد انقضاء الصراع الأيديولوجي بين الغرب والاتحاد السوفياتي أو بين الليبرالية والماركسية، والسقوط السياسي للاتحاد السوفياتي، وجد الخطاب الديني نفسه بين أمرين : إمّا أن يصبح موضوعا للصراع الأيديولوجي الجديد مع الغرب، أو أن يسارع إلى الدخول في علاقات صداقة مع الغرب حتى يتجنب هذا الصراع، فارتضى هذا

الخطاب الأمر الثاني وقد ساعد على هذا سعى الغرب ذاته إلى أن يكون له محاور إسلامي (معتدل) أكثر تحررا أو تحللا من موروثه الديني والثقافي وأكثر تفهما للنظام الدولي الجديد.

استند الخطاب الديني على عدة أطر مرجعية في دعوته للتسامح لعل أولها استدعاء النص القرآني.. فجوهر رسالة القرآن الكريم، في رأي الخطاب الديني هي التسامح والحوار ونفي الإكراه والكراهية في الدين للآخر وإشاعة العفو والسلام والعدل والإحسان والتراحم والحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة التي هي أحسن والمحبة والصبر والصفح الجميل؛ وهي مقولات تعبّر عن اللّين والسماح والتسامح والعيش المشترك والدعوة إلى الحريات وحقوق الإنسان ونبذ التعصّب ونقده، ونبذ العنف والقراءة المتحيّزة للدّين، فوجدنا هذا الخطاب يردّد الآيات :

« يا أيها الذين أمنوا ادخلوا في السّلم كافة » البقرة. الآية : 208.

« ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السّلم لست مؤمنا » النساء. الآية: 94.

« لا إكراه في الدين قد تبيّن الرشد من الغي » البقرة. الآية : 256.

« ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين. وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن اللّه » يونس. الآيات : 99 ـ 100.

« يا أيها الذين أمنوا عليكم أنفسكم لا يضرّكم من ضل إذا اهتديتم » المائدة. الآية : 105.

« قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون

ما أعبد. ولا أنا عابد ما عبدتم. ولا أنتم عابدون ما أعبد. لكم دينكم ولي دين» الكافرون. الآيات : 1 ـ 6.

«أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن» النحل. الآية : 125.

وعندما يتعرض الخطاب الديني إلى الآيات والأحاديث التي تختص بالقتال فإنه يقول بأنها آيات لا تنبطق على الجميع إذ هي موجهة في حالة الحرب وموجهة إلى أعداء اللّه، وهي مرتبطة بالأحداث التاريخية التي نزلت فيها هذه الآيات[8]، لهذا يردّد هذا الخطاب آيات من قبيل :

«وإن جنحوا للسّلم فاجنح لها وتوكّل على اللّه» الأنفال. الآية : 61.

نخلص من هذا أنّ الخطاب الديني يؤكد من خلال النص القرآني أن الإسلام صكّ تصورا للكون يقضي بأن الوحدانية للإله فقط وما عدا ذلك يخضع للتعدّد. والاختلاف ليس حقًّا من حقوق الإنسان فقط ولكن سنّة من سنن اللّه التي لا تتبدّل.

كما يستدعي الخطاب الديني التراث العربي الإسلامي.. حيث يشير هذا الخطاب أن المسلمين عبر تاريخهم، قد مارسوا ضروبا شتّى من التسامح تجاه مخالفيهم في العقيدة، وكانوا متأثّرين في ذلك بطبيعة رسالة الإسلام التي هي رسالة رحمة وتسامح وعدم الإكراه في الدين. فوجدنا الخطاب الديني يستدعي

---

8) «التّسامح في الحضارة الإسلامية» : سلسلة القضايا الإسلامية للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية. وزارة الأوقاف. مصر ـ العدد 110. 1425هـ. 2004.

الشخصيات الإسلامية التي وقفت مواقف متسامحة من الآخر، أمثال عمر بن الخطاب، وصلاح الدين الأيوبي، وعبد القادر الجزائري ليكونوا أمثلة على التسامح في التراث العربي الإسلامي.

كما يحاول الخطاب الدّيني أن يكشف عن الأبعاد العقلانية والأخلاقية والإنسانية والجمالية السامية في التراث العربي الإسلامي من خلال استدعاء ابن رشد الذي يعدّ نموذجا لمعنى التسامح. فقد دافع ابن رشد عن آراء ومعتقدات الآخر غير المشارك للأنا في الدين (الملّة) بحجة تراكمية المعرفة، فمن غير المنطقي أن نقفز، في العلوم العقلية والدينية على علوم وآراء الفلاسفة الأوائل بحجة اختلافهم في الملة أو عدم معاصرتهم لنا، لهذا يعيب ابن رشد على الغزالي موقفه المتعصب أو اللامتسامح، فالغزالي - في نظر ابن رشد - لا يتفهم موقف الآخر بل يحكم مسبقا بفساده دون النظر فيما يقدمه هذا الآخر من معرفة[9].

ومن المنطلقات الهامة التي ينطلق منها الخطاب الديني المعاصر، إحياء النزعات والطرق الصوفية واعتبار التصوف جسرا بين الأديان والحضارات. فقد حاول الخطاب الديني إحياء الخطاب الصوفي والترويج إلى أن الحضارة العربية الإسلامية حضارة روحية صوفية في الأساس، تقوم على الحب والمحبة. لذا يردد الخطاب الديني الصوفي أنّ التصوف هو التعبير الإسلامي الأصيل عن التسامح الذي يؤدي دوما إلى قبول الآخر المختلف والانفتاح عليه

9) د. محمد عابد الجابري: «قضايا في الفكر المعاصر» مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت 1997. ص 23.

ونبذ العنف في التعامل معه، ويسترشد الخطاب الديني الصوفي ببعض أبيات من الشعر لمحيي الدين بن عربي المتوفى في 638 هجرية حيث يقول فيها :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي
إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
وقد صار قلبي قابلا كل صورة
فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف
وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنّى توجهت
ركائبه فالحب ديني وإيماني[10]

إنّ التصوّف، في زعم هذا الخطاب، هو القادر على تجاوز التعصب وضيق الأفق الذي التصق بالجماعات الأصولية (المتطرفة) لأنه المعين الذي لا ينضب لاستلهام القيم الروحية، وهو فلسفة إنسانية تجعل الحياة محبًّا ومحبوبًا، فاللّه محبة والدين محبة والحياة محبة وكل شيء في الوجود طابعه وصانعه الحب والتسامح، لذا يردد الخطاب الديني الصوفي أن الأديان جميعا تنشد جوهرا واحدا مهما اختلفت الطقوس[11].

---

10) ابن عربي محيي الدين : «ذخائر الأعلاق شرح ترجمان الإشواق». تحقيق : محمد الكردي. مطبعة السعادة. القاهرة. ص 50.

11) ليلى مقدسي : «التصوف أجنحة محبة». مجلة الموقف الأدبي : اتحاد الكتاب العرب. دمشق. العدد 380. كانون الأول 2002.

لهذا يحاول الخطاب الديني التقريب بين المسيحية والإسلام.. فلكي يقدم الخطاب الديني براءته من تهمة العنف واضطهاده للأقليات المسيحية في البلاد العربية الإسلامية يحاول التّقريب بين الخطاب الديني المسيحي والخطاب الديني الإسلامي في صورة مؤتمرات ولقاءات إعلامية، فيستدعي البابا ليتحدث عن سماحة الإسلام ويستدعي الشيخ ليتحدث عن المسيحية بوصفها دين التسامح والمحبة. وهكذا يبرز الخطاب الديني أن المسيحية والإسلام يشكّلان منبعا ومصدرا لفكرة التسامح النابعة من مصدر إلهي مقدس. لقد أكد الخطاب الديني بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر على ضرورة الفهم المتبادل بين الإسلام والمسيحية والبعد عن الأحكام المسبقة والمفاهيم المغلوطة من أجل قيام حوار مثمر وبناء بينهما، وحتى يصحّح هذا الخطاب للعالم الغربي والأوروبي الصورة المشوهة عن الإسلام على أنه حرب دائمة على غير المسلمين (اليهود والمسيحيين) والكراهية لهم، سعى إذن الخطاب الديني - مثله مثل الخطاب العلماني - إلى كسب ودّ الغرب عن طريق إظهار البعد التكاملي بين المسيحية والإسلام، وهذا ما اتّضح في خطاب شيخ الأزهر وخطاب بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية في مصر.

لقد حرّك الخطاب الديني في العقد الأخير الأحداث العالمية أو الواقع الراهن الذي يعني هيمنة الغرب السياسية والاقتصادية والإعلامية والعلمية والتقنية. مما جعل هذا الخطاب ينادي بالإصلاح والتجديد بما يتناسب مع المتغيرات والأحداث

المعاصرة. لذا وجدنا هذا الخطاب يستخدم آليات مفتعلة للتقريب بين الإسلام والليبرالية والعلمانية، فنجده يبدأ بقراءة مجزّأة لبعض الآيات القرآنية حتى تتفق هذه القراءة مع تلك المتغيرات، ويستخدم منهجيّة تأويلية تجعل الآيات القرآنية دعوة للحوار والتسامح مع الغرب، كما أنه يتسخدم نفس المنهجية التأويلية على مستوى التعايش بين العقائد والأديان والشعوب في إطار دستوري، حيث يرجع هذا الخطاب إلى عهد الصحيفة الذي أمضاه الرسول بين المهاجرين والأنصار واليهود في المدينة في السنة الأولى للهجرة، وهذا ما جعل الخطاب الديني يدعو المجتمعات العربية والإسلامية لترك الخلافات العقائدية جانبا والبحث عن علاقات جديدة بالغرب تقوم على الاحترام المتبادل والتسامح.

إن الخطاب الديني بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر يقوم بعملية إسقاط لمعنى التسامح الغربي، بعبارة أخرى، يفهم هذا الخطاب الإسلام من منظور وخلفية فكرية غربية فيحاول تجذير مفهوم التسامح الغربي في التربة العربية الإسلامية، ويبحث عن أصول له في الإسلام، فيسترشد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية والنصوص التراثية التي تخدم منطلقه وخلفيته بحيث تبدو هذه الآيات والأحاديث والنصوص وكأنها تتحدث عن تسامح عالمي كوني مقدس، بمعنى أن الخطاب الديني يوظف مفهوم التسامح بحيث يبدو هذا المفهوم وكأنه أحد المسلمات العقدية التي لا ينبغي مناقشتها ويوجب الإيمان بها والإذعان لها. فتحول خطاب التسامح إلى نوع من الخنوع والتساهل والخضوع للأمر الواقع تارة

وللغرب تارة أخرى. وقد ساعد على استفحال الخطاب الديني ومفهومه المائع عن التسامح مباركة السلطة السياسية الحاكمة في الواقع العربي الإسلامي له عن طريق الإعلام، في حين أنّ هذا الخطاب ذاته يزعم أنه بعيد عن أي تأثير سلطوي أو أيديولوجي سياسي، بل يتسم هذا الخطاب بالموضوعية وعدم التحيز لاعتماده على النص القرآني والحديث النبوي وهو لا يراعي في هذا طبيعة المرحلة التي نزلت فيها هذه النصوص وعلاقة النصوص المختلفة بكل مرحلة منها، فيخلط الخطاب الديني بين النص القرآني ومرحلته فيحمّل النص القرآني ما لا يحتمله من المبادئ والقواعد النهائيّة، فتبدو كل آية قرآنية تظهر قيمة التسامح، آية نهائية وتمثل ثابتا من ثوابت العقيدة.

ثالثا : تجديد الفكر العربي والبحث عن مفهوم للتسامح:

إن تجديد الفكر العربي يستلزم صياغة تصور للتسامح يضع احتياجات الشعوب العربية في المقدمة وليس احتياجات ومصالح السلطات العربية السياسية الحاكمة، ومن ناحية أخرى يستشرف هذا التصور آفاق المستقبل ليكون التسامح العربي المنشود قادراً على القيام بدور إيجابي فعّال على المستوى المحلي والدولي. إن النظرة المستقبلية لا تقبل التحجر ولا الانغلاق، بل تجعلنا ننظر إلى التسامح نظرة أشمل وأعمق من الطرح العلماني والديني في فكرنا العربي المعاصر.

1 ـ إن التسامح في حاجة إلى قوة ينطلق منها حتى تضمن

هذه القوة التحقّق الفعليّ للحرية الإنسانية، فلا تصده عن هذه الحرية سلطة من أي نوع، لذا لم يكن التسامح مجرد قيمة أخلاقية نظرية، بل هو سلوك عمليّ واقعيّ يدخل في مواجهة مع أفكار أخرى.

2 ـ إن التسامح لا ينفي مواجهة الواقع وتغييره والوقوف أمام الأنظمة التسلطية والسلطات القائمة عليها، لأن جوهر التسامح كقيمة دينية أخلاقية، يكمن في خطاب ما علماني أو ديني، وبالتالي لا يتعارض التسامح مع المقاومة، فالصفح والعفو والمسامحة تنطلق من القوة والمقدرة وليس من الضعف أو الاستسلام.

3 ـ إن التسامح الذي نريده لا يتطلب نظرة دونية للأنا ولا تصورا تعظيميا للآخر / الغرب، بحيث أكون أنا أول من يبدأ بالتسامح، فقد ساد في واقعنا العربي الإسلامي على المستوى الشعوري واللاشعوري أن الضعيف هو دائما ما يحتاج إلى حوار، ولما كانت الثقافة العربية الإسلامية في وضع الاتّهام وفي نفس الوقت في وضع الضّعف، فكان حتما أن تبدأ بالحوار وأن تفضّل التسامح عن المقاومة، في حين أن الآخر / الغرب الذي لديه السيادة السياسية والاقتصادية لا يتحاور أولا، وربما، في كثير من الأحيان، لا يسمح لنا بالتّحاور أصلا.

4 ـ إن التسامح المنشود هو أن نعطي للثقافات والحضارات غير الغربية الفرصة للتعبير عن نفسها والحوار فيما بينها، ورفض هيمنة القطب الواحد حتى لو ظهر هذا القطب الواحد على صورة التعددية التي يعدّها مظهرا من مظاهر التسامح، إن التعددية لا

يمكن أن تستخدم كذريعة لفرض ثقافات وقيم وتوجهات أخرى على ثقافة الأنا، حيث تعني الأنا هنا الأنا الجغرافي والتاريخي والحضاري. بحيث يتمّ نزع ثوابت الأنا وخصوصياتها الثقافية والحضارية والعقدية.

5 ـ إنّ التسامح لا يعني القبول السلبي الاضطراري للآخر، أو السكوت عنه في انتظار الفرصة لإلغائه أو القضاء عليه، بل التسامح هو استدعاء للآخر والحوار معه من منطلق أن الاختلاف هو سنّة إلهيّة وسمة وجودية، فكلّ فرد لِه عالمه الحياتي الخاصّ به، هذا العالم الذي يحيى فيه، ويحيى فيه الآخرون، هذا المجال الحياتي ليس مكانا فقط، بل هو علاقة متداخلة بين المكان والزمان، فهو المكان الذي أعيش فيه، وهو أيضا الماضي المخزون داخل عقلي ويحرّك مشاعري وانفعالاتي، وهو الواقع الذي أحيا فيه، وهو أيضا الثّابت الثقافيّ والحضاريّ والعقديّ الذي يحركني، هذا العالم يسير معي أينما كنت، أحمله دائما على ظهري أينما انتقلت، وهذا يعني اختلاف الأفراد بعضهم عن بعض وفقا لعالم كل واحد منهم. وهذا يجعل خطاب التسامح الذي يطالب الأفراد والشعوب والحضارات أن تدخل في حوار مع الآخر / الغرب بعقل فارغ، وكأنّه صفحة بيضاء تحت دعاوى النزاهة والموضوعية وتحكيم العقل والعقلانية، خطابا زائفا.. إنّ خطاب التسامح يوجّه الأنظار إلى اندثار الاختلافات الثقافية في عالم اليوم بحيث يكون العالم مشترك بين الناس جميعا، هذا الاندثار توجّهه المصلحة المادية الاقتصادية والسياسية.

6 ـ إن التسامح المنشود يقوم على معرفة الذات / الأنا : تاريخها وهويتها وشخصيتها التاريخية، يقوم على فهم الأنا دون رهبة أو خجل ودون تهوين وتهويل، ومن ناحية أخرى يقوم التسامح على معرفة الآخر وفهمه، ولا يعني الآخر هنا الغرب فحسب، بل الحضارات والثقافات الأخرى غير الغربية.

7 ـ إن الحوار الذي هو ركيزة التسامح الأساسية يرفض المركزية الحضارية لأي حضارة ترى في ذاتها مركزا للحضارات الأخرى، كما يرفض الحوار الذوبان أو الاستعداد للذوبان في أي كيان من الكيانات التي لا تتفق مع الثوابت الحضارية والثقافية والعقدية للأنا، بعبارة أخرى لا بد لكي يؤتي الحوار ثمرته أن ينطلق من الخصوصية والهوية الحضارية والثقافية والعقدية للأنا.

8 ـ إن التسامح المنشود هو إعطاء الآخر الداخل المخالف في الرأي والفكر الفرصة للتعبير عن ذاته، وأن يكون هناك مصالحة معه من أجل مقاومة الهيمنة الغربية على الأنا.

9 ـ إن التسامح المنشود يرى في حرية العقيدة أول حقوق الإنسان فالذي يسلب إنسانا حرية الاعتقاد إنما يسلبه إنسانيته، ولكن حرية العقيدة لا تكفي، بل لا بد لكي تتحقق إنسانية الإنسان أن يكون هناك حرية الدعوة للعقيدة، وأن يكون الداعي لهذه العقيدة في مأمن من أجهزة ومؤسسات الدول وإلا فلا معنى للحرية المتسامحة.